تعريف بالكتاب

يشيع على الألسنة المتعجلة أن « نحلة الشخصية » تنطوى وتضمر فى العصر الحاضر لأنه عصر الجماعة وليس بعصر الفرد ، أو لأنه بعبارة أخرى – عصر العدد الكثير وليس بعصر الآحاد .

ونظرة عاجلة لهذه القولة العاجلة تدل على حقيقة هذه الاشاعة :

نظرة الى عناوين الكتب التى تصدر من المطبعة فى الغرب والشرق تدل على حقيقة النظر الى « الشخصية الانسانية فى عصر الجماهير » . فان عناوين الكتب تدل على موضوعاتها وعلى نسبة التراجم والسير بين تلك الموضوعات ، فهى – كما يظهر من النظرة الأولى ومن النظرة الأخيرة معا – أوفر عددا من ميثلاتها فى العصور الماضية ، وربما زادت كتب التراجم والسير فى ربع القرن الأخير على عددها فى القرن التاسع عشر كله مع زيادة عدد المطبوع من تلك الكتب على حسب زيادة الجماهير وهى الجماهير التى يقال بلسانها أنها تعرض عن « الشخصيات » وتنفر من نحلتها المتمثلة فى كتب التراجم والسير وفى الكلام على المشهورين والعظماء ، فاذا أضفنا الى الكتب المطبوعة صور الستار الأبيض وأحاديث الاذاعة وأخبار الصحف ، فقد تزيد جملة الشخصيات التى اهتم بها أبناء زماننا على جملة الشخصيات المشهورة فى جميع الأزمنة .

ان الاهتمام « بالشخصية الانسانية » لم يبطل ولن يبطل فى عصر من العصور ، وربما تغيرت أسباب الشهرة التى يهتم الناس من أجلها بصاحب الشخصية ، ولكن الأمر الذى لا يتغير هو اهتمام الناس بكل انسان يسترعى أبصارهم وأسماعهم بصفة من الصفات أو عمل من الأعمال ، مهما تختلف الصفات والأعمال ، ومهما تختلف الأبصار والأسماع .

وكل ما هنالك من فارق بين تراجم العصر الحاضر وتراجم العصر السابق أن الترجمة كانت عملا خاصا يتوفر عليه مترجمون متخصصون ولكنها اليوم حق مشاع لكل من يعرف سيرة ويستطيع أن يكتب عنها كتابا وربما صدرت الترجمة من قلم صاحبها أو أقلام المقربين اليه وذوى قرباه ، فهى أعم وأشيع من أن يحتكر الكتابة فيها « مترجمون متخصصون » .

اننا لا نستطيع أن نختار ترجمة تفصل بين العهدين أصلح من ترجمة الملكة ڤكتوريا ولا نستطيع أن نختار مترجما متخصصا أصلح لهذا الغرض من مؤلفها ليتون ستراشى . خاتم المترجمين المتخصصين فى الآداب الانجليزية .

يقول بريزون فى فاتحة الحوار التالى : « ان كثيرين جدا يستطيعون أن يتذكروا وفاة الملكة ڤيكتوريا ... ولكن عصرها وحياتها يبدوان على وجه التقريب جزءا من التاريخ القديم » .

ويقول ميكالوبولوس انها « كان لها شخصية لا مثال لها . بدأت وهى المانية تماما وانتهت امرأة انجليزية » .

وتدهش الأميرة كروبتكين فتقول متسائلة : امرأة انجليزية ؟

فيعود ميخالوبولوس قائلا : « ان عزة منزلتها واعتزازها بكونها ملكة انجلترا ، ربما لم يجعل منها امرأة انجليزية وانما جعل اسمها رمزا لنظام كامل » .

نعم . ان الملكة ڤكتوريا قد كانت فى مدة ملكها الطويلة رمزا لنظام كامل ، وكان هذا النظام كاملا لأنه يحيط بحياة الأمة الاجتماعية كما يحيط بحياة الدولة السياسية ، فلما انقضت أيامها انقضت معها مظاهر النظام كله ولاح للناظرين الى الفاصل بين العهدين انهم ينتقلون — كما قال بريزون — من التاريخ القديم الى التاريخ الحديث ولولا طبيعة فى المجتمع الانجليزى تحسن التحول التدريجى مع المحافظة على الظواهر

العيانية لما تم هذا الانتقال بغير ثورة دموية تنقطع بها الصلة بين الماضى والحاضر ، ويحس الناس مفاجأتها بدلا من الاحساس بها كأنها مفارقة من مفارقات النقائض والاضداد .

لقد شهدنا نحن فى مصر أعقاب العهد الفكتورى وهو يتوارى بزيه الجديد تحت غطاء الزى القديم ، وشهدنا نقائض الانتقال بين العهدين فى مدى سنوات معدودات ، فرأينا مندوب بريطانيا العظمى يستبيح أيام الحرب العالمية الثانية أمورا كانت تطيح به من مركزه قبل أن يصبح الصباح ، لو انه استباحها أيام الحرب العالمية الأولى .

وليس أحق من ليتون ستراشى أن يكتب لأبناء عصره ترجمة هذه الملكة ذات النطاقين : الملكة التى أقامت على عرشها رمزا للنظام الكامل ، ثم أصبحت فى قلوب أبناء شعبها وبناته امرأة انجليزية « يقدسونها ويحبونها ، بل يعطفون عليها كعطف الأبوين على فتاتهما الناشئة ، وهى تحسن تمثيل دورها فى سمت النساء » .

كان ليتون ستراشى زعيم مدرسة التراجم التى اشتهرت باسم مدرسة التفريغ Debunking school.

وقد سميت بهذا الاسم لأنها كانت تعمد الى السمعة المحشوة بالمقدسات وزخارف التقاليد فتفرغها من هذا الحشو وتبقيها على سجيتها فى مباذل الدار ، أو — على الأكثر فى كسوة الاحتشام بين جدران حجرة الاستقبال ! .

وقد تناول ستراشى عشرات التراجم المطولة والموجزة فصنع بها هذا الصنيع ، ولم يبال أن يمزق عنها الستار فى جميع الأحيان ولكنه كان يصنع الستار أحيانا ليفهم الناس أنه ستار فلا يدعه محجوبا فى الظلام كأنه محراب من محاريب العبادة والتقديس .

ومن الذين كتب عنهم وعرفناهم بالنظر أو بالسماع لورد كرومر والجنرال غوردون ، فاذا أردنا أن نقيس تراجمه الأخرى بمقياس هاتين

الترجمتين فالحق أنه زعيم مدرسة التفريغ غير مدافع ، ولكننا نظنه مقتصدا فى التفريغ حين يجهل بعض الحقائق عن أبطاله فى بيئاتهم الشرقية فانهم ليظهرون فيها كثيرا مما يحجبونه من عاداتهم وأخلاقهم بين أبناء قومهم ، ولا سيما الرسميين واشباه الرسميين .

* * *

ومن الواضح أن ستراشى لم يخلق مدرسة « التفريغ » فى كتابة التراجم والسير ، لأن العصر كله كان عصر « تفريغ » بالجملة فى النظر الى الأشخاص والأخلاق وفى النظر الى التقاليد والعادات ، ولكن ستراشى قد استعد للتفريغ فى الترجمة للأبطال والبطلات بعدة خاصة لا يشاركه فيها كل كاتب للتراجم والسير ، وربما توافرت له العدة الثقافية مع العدة النفسية التى لابد منها للتفوق فى هذه الصناعة ، فقد كان ولا شك من أوائل المتفوقين فيها بين كتاب الانجليزية وكتاب اللغات الأخرى فى عصره ، وبهؤلاء انتهى عهد التخصص للتراجم والسير واتسع المجال بعدهم لغير المتخصصين « وللشخصيات » التى لم يكن أحد يكتب عنها قبل عصر « التفريغ » .

والعدة الثقافية التى رشحت ستراشى للتفوق فى هذه المدرسة هى نشأته فى بيت ستراشى الذى نشأ منه غير واحد وغير واحدة على الشغف بآداب اللغة الفرنسية ونقادها المتفرغين لكتابة التراجم والتعليقات على « الشخصيات » .

وقد كان اعجاب ستراشى بأحاديث سان بيف أول درس تلقاه من دروس التفريغ وأول نموذج تمثل به فى كتابة تراجمه القصار ، ولم يكن سان بيف خالقا لهذه المدرسة فى اللغة الفرنسية ، ولكنه تلقاها ـ كتلميذه ـ من وحى العصر فى أعقاب الثورة الفرنسية وكان لهذه الثورة فعلها الحاسم فى القضاء على تقاليد « الرمز الكامل » لنظام الملكية الباريسية ، فزالت هذه التقاليد قبل أن تزول فى الجزر البريطانية ، وربما كانت حروب الجزر البريطانية مع فرنسا هى التى أطالت أجل

« الرمز الكامل » لنظام الملكية كما عرفته الأمم البريطانية قبل نهاية عصر فكتوريا وبداية عصر ادورد السابع ... ولا ننسى أن ادورد السابع الذى تجددت فى عهده مظاهر النظام كله كان من رواد المجتمع الباريسى قبل جلوسه على العرش ، وكان بعد جلوسه على العرش رسول التوفيق بين الدولتين الانجليزية والفرنسية .

وترادف العدة الثقافية عدة نفسية ساعدت العصر والثقافة على ترشيح ستراشى لزعامة التفريغ ... وتلك هى عزلتـــه عن المجتمع وشـعوره بقلق الحيـــاة البيتية فى فترة الانتقـــال بين العصر الفكتورى والعصر الذى تلاه . فان بعض العوامل ـ ومنها عوامل الجسم العليل ـ قـد وقفت بالكاتب على أبواب الحيـــاة الاجتماعية فـلم يقـــدم على الزواج ولم يفكر فى بنـــاء الأسرة بين متاعب العصر ، ومتاعب السقم ، وعاش طوال حياته متفرجا على أطوار الحياة الاجتماعية ناقدا لما يتتابع فيها من عوارض الحشو والفراغ ومظاهر الفخامة الذاهبة فوق بسائط الواقع التى أوشكت أن تتعرى من فخامتها .. وبهذه العدة السابقة من عوامل المزاج وعوامل الثقافـــة وعوامل العصر ـ تمت للكاتب رســالته وخرجت سـيرة « الرمز الكامل » من قلمه بهذه البساطة الانسانية فى هذه المرأة الانجليزية ... ولم يكن أصلح منه لختام مدرسة المترجمين المتخصصين ولا أصلح من ترجمة الملكة فكتوريا «لهذه النقلة بين العهدين» .

عباس محمود العقاد